

عبد الله نديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦



ظل الشعر في مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوى
خوفاً من المعانى الوطنية ، إلى أن تجددت في شعر
عبد الله نديم .

هو خطيب الثورة العرابية ، وهو أيضاً شاعرهما ،
انطبعت في خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة ،
وروح الثورة .

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية ، وبدأت عليه

منذ صباه مخايل الذكاء اللامع ، وظهرت مواهبه في الترسل في الكتابة والشعر والزجل ،
والقدرة الخطابية ، مع خفة في الروح ، وميل إلى الفكاهة ، وجرأة وإقدام ، واستخفاف
بأحداث الزمان .

ولما ظهرت الثورة العرابية أوائل ١٨٨١ ، انضم إليها بطبعه ؛ إذ كانت نفسه تتأجج
وطنية ، وتتطلع إلى الحرية والمجد ، وتجلت مواهبه الخطابية ، فصار خطيب الثورة العرابية .
ومما يذكر عنه في صدد الحديث عن شعره الوطني أنه لما سافر الألاى السودانى الذى
كان يقوده الأميرالاي عبد العال حلمى أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط ، في أوائل
أكتوبر سنة ١٨٨١ ، كان سفره يوماً مشهوداً ، فاحتشدت الجموع في محطة العاصمة لتحية
الألاى حين سفره ، وكان من بين المودعين عرابى والبارودى وعبد الله نديم ، فوقف النديم
وسط هذا الجمع الحاشد وألقى خطبة حماسية فياضة ، بدأها بقوله مخاطباً رجال الجيش :

« حماة البلاد وفرسانها !

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتكم
إليه من الشرف وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات .

إلى أن قال : وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول :

إليكم يُرَدُّ الأمر وهو عظيم فإني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى فمن أين يأتي للديار نعيم ؟
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه تأخر عنه صاحبٌ وحيم
فردُّوا عنان الخيل نحو نحيم تعلقه بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة فشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطاة فليس نفلول اليدى حريم

وختم خطبته بقوله : وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان !) ، فنادى الجميع (رضينا بالموت في حفظ الأوطان !) .

ولما شبت الحرب العراقية لازم النديم عرابي في كفر النوار ثم في النمل الكبير ، وكانت مجلته (الطائف) ، تصدر في معسكر الجيش المصري .

وبعد أن وقعت الهزيمة ، وظل مخلصاً للشورة في محتها ، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة ، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم ، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه ، وظل محتفياً عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام ، وأعياء الحكومة أمره ، وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه ، ولكنها لم تهتد إليه .

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه في قصيدة تفيض وطنية وإيماناً وفخراً وشجاعة ، وهي من غرر قصائده . قال :

أحسبنا إذا قلنا بلينا بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهي فيحسب خاملاً أنا دُهينا
تناوشنا فتقهرنا خطوب ترى ليث العرين لها قرينا
سواء حربها والسلم إنا أناس قبل هدتها هدينا

إلى أن قال :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا فإن عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلد على جلد يقينا فإن زاد البلا زدنا يقينا

ألقنا كل مكروه تفدى له فرسانه بالراجليننا
فأعيا الخطب ما يلقاه منا ولكننا صحاح ما عيننا

سلينا ياخطوب فقد عرفنا
وقرى فوق عاتقنا وقولى :
علينا للعلا دين وضعنا
فهل يمسى رهين فى سرور
إذا ما الحمد نادانا أجبنا
يغنيننا فيلهينا التغنى
ولسنا الساخطين إذا رزئنا
فإنا فى عداد الناس قوم
إذا طاش الزمان بنا حملنا
إلى أن قال :

سألو عنا (منابرنا) فإننا
لحكمتنا تقول إذا هذرتهم
سرى فينا من الآباء سرى
فإن عشنا منحنا سائلينا
تركننا فى منصتها فطينا
ألا هبى بصحنك فاصبحينا
يسوق البر نحو المعوزينا
وإن متنا نفحننا الزائرينا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذى كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم

أ أنسى يوم مصر والبلايا
فكنت^(١) الغوث فى يوم كربه
مدحنافيه فى إشراق شمس
وهل أنسى هجوم الجند عمراً
أحاطوا بى وسدوا كل باب
تطارذنى ولا ألقى معيننا
أخاف الشهم والحبر السميننا
فما جاء مغربه هُجينا !
بلا علم وقد كنا فحيننا
وصرنا بين أيدي الباحثينا

(١) الخطاب هنا وفى الأبيات التالية موجه إلى الرسول عليه السلام ، والتديم شريف النسب .

وكان السطح مملوءاً بجند فأدركت الوحيد وكان صيدا وأرشدت النديم إلى مكان وأعمى الله عنا كل عين وصرنا فوق سطح فيه علو فلم أرهب وثوبى من طار ويوم الغيظ كنت لنا مجيرا فقد كنا بلا ستر يرانا وكم سرنا بلا خوف جهارا وإني الآن فى خطب عظيم أتانا مخبرٌ عن قوم سوء وخاف الضُّرَّ أحببى جميعا فعجل بالرحيل بلا توان فأدرك يا أبى نجلا دهاه فاختفت المنون ولا الأعادى

فسرتُ الليل بصحبنى ثبات ورافقتى خليل كان قبلا وأدركنا القطار بغير خوف وألقى الله ستر الحفظ فضلا وكان الحل منتظراً قدومى ونجى الله بعد اليأس عبدا
لخِلِّ نحو منزله دُعينا يوافى حين كنا ظاهرينا وكنا بالثياب منكربنا فلم ترنا عيون المبلسينا بنجىل أوصلتنا سالمينا يرى الرحمن خير المنقذينا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى فى الروح والأسلوب من شعره فى إبان الثورة ، وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تل منه ، بل زادته قوة وحيوية ، وصلابة و بلاغة ، وأن الشدائد

صقلت مواهبه كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها في لهب النار ، فاحتفظ النديم في سنى
الحنة بما حباه الله من إيمان صادق ، وعزم ثابت ، وصمود على الأيام ، وكذلك الشدائد
والحن ، يختلف أثرها في نفوس الناس ، فبينما تبعث اليأس والجزع في النفوس الضعيفة ،
نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتا وصبرا ، وشجاعة وإيمانا ، ومن هنا جاء شعر
النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه في أوج انتصارها .

وفي الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العراقيين الذى استمر في جهاده ضد
الإنجليز ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال ، وتلك لعمرى ميزة كبرى جديرة بأن تحيط
اسمه بهالة من المجد والخلود ، وقد اهتدت الحكومة إلى مكانه سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى
خارج القطر ، وفي أوائل عهد الخديو عباس الثانى عفى عنه ورخص له بالعودة إلى مصر ،
فعاد إليها ، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ ، فتجلت فيها روحه الوطنية التى لم تضعفها
الهزيمة ولم تنل منها الشدائد ، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم ، فتدخل اللورد كرومر ،
وأمر بإبعاده عن مصر ثانية ، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣ ، وودع قراءه وداعا
مؤثرا في آخر عدد صدر منها (في ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال :

« ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه
في فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا في أعين الواقفين عند
الظواهر ، وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلا :

أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاءكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواعي تبدت فالسلام عليكم !

وانتهى به المطاف في منفاه إلى الاستانة حيث توفى سنة ١٨٩٦ ، وشيعت جنازته
في احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء ، يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغانى ،
يودفن هناك .

بالأمس كان غريبا في ديارهم واليوم صار غريبا للحد والكفن !